دكتور
محمد سيد أحمد المسير

قضية التكفير في الفكر الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ — ١٩٩٦ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى..

أما بعد :

فالفكر الإسلامى له عطاؤه المتواصل، الذى يرتكز على أصلين عظيمين هما : القرآن المجيد والسنة المطهرة . . ، ويقوم فى منهجه على نقاء العقل وصفاء الفهم ونور اليقين .

وقد تعددت المذاهب واختلفت الآراء، ومع ذلك فإن الحق أبلج ، تطمئن إليه النفس ، وينشرح به الصدر، ويسرى إلى العقل والقلب .

لكن كما قال الإمام البوصيرى :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

وتعد قضية التكفير من القضايا التى شغلت الفكر الإسلامى على مدى تاريخه الطويل ، واختصم حولها الفرقاء، وتبقى كلمة الحق عالية رغم دعاوى القوم والغلواء، لأنها كلمة الله الملك الحق المبين .

وقد جاء هذا البحث على مجموعة محاور :

• التوبة وشروطها وأعمال الخير التى يمحو الله بها الخطايا فالتوبة تجب ما قبلها وتبدل السيئات حسنات .

• الكبيرة وتعريفها ومذاهب العلماء فى حكم مرتكبها ، وبيان مذهب أهل السنة والجماعة الذين يجمعون فى اجتهادهم بين العقل والنقل ويوفقون بين النصوص ويعلنون أنهم لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله .

• موقف أهل السنة من النصوص الشرعية التى ترتب حكم الكفر على بعض كبائر الإثم والفجور ، وبيان أن هناك كفرا دون كفر ، وشركا أصغر لا يخرج عن الملة .

• الحكم بالكفر فى آثاره الدنيوية والأخروية ، وبيان أن الحكم بالكفر من عامة الناس يقع على الأوصاف ، ومن أولياء الأمور والقضاة يقع على الأشخاص بالحق وبينات الأدلة وشواهد اليقين .

• الحاكمية فى مفهومها الشرعى تعنى أن يحكم الناس أنفسهم بمنهج الله عز وجل ، ويقوم بها رجل لا عصمة له ، مطالب أن

يلتزم بشرع الله ودينه ، وهو ليس أفضل الناس ولكنه أكثرهم حملا وأعظمهم أمانة .

* نظرة إلى الفرق الإسلامية تؤكد أن الاختلاف فى فروع الدين لا يمثل شقاقا فى الأمة بل إنه يعد من يسر التشريع وسماحة الاجتهاد .

وأن اختلاف الأصول رغم صدمته — لم يصل فى الأمة الإسلامية إلى مرتبة أن يقال : هذا كافر وذاك مؤمن .(١)

فالمسلمون تجمعهم كلمة التوحيد ، ويتحلقون حول الكعبة المشرفة ، وتخشع قلوبهم للقرآن العظيم ويلتزمون بأركان الدين .

* موالاة الكافرين مرفوضة شرعا وهى تعنى الخيانة للأمة والتفريط فى الدين ونقل أسرار المسلمين إلى أعدائهم المحاربين .

وهذه الموالاة تختلف اختلافا كبيرا عن البر بأهل الذمة ، والتعاون مع كل من ألقى إلينا السلم ولم يظاهر علينا أحدا .

فإن شواهد القرآن ووقائع السيرة النبوية تؤكد سماحة

---

(١) الفرق المنتسبة إلى الإسلام ليست مرادة هنا كغلاة الشيعة والبهائية ..

الإسلام والمسلمين ، وتدعو إلى التعاون المشترك لمصلحة الأمن العام وفي إطار التعارف البشرى وكرامة الإنسان .

وما أسعد الناس حين يعيشون عباد الله إخوانا

وما أجمل مشاعر الحب والوفاء .

« ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم »(١) .

غرة جمادى الآخرة ١٤١٣هـ(٢)

٢٦/١١/١٩٩٢م

أبو حذيفة
د. محمد سيد أحمد المسير
أستاذ العقيدة والفلسفة — كلية أصول الدين
جامعة الأزهر

---

(١) سورة الحشر — الآية ١٠

(٢) سلمنا هذا البحث لوزارة الأوقاف في التاريخ المذكور لطبعه ونشره مساهمة منا لوجه الله تعالى في تصحيح المفاهيم .. وإلى الآن لا أدرى ماذا تم بشأنه .. !!

المبحث الأول

التـــوبة

- حقيقة التوبة
- مكفرات الذنوب

حقيقة التوبة

جاء الأمر الإلهى بالتوبة عاما فى قوله تعالى «وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون»(١).

وحقيقة التوبة الشرعية إقلاع عن المعصية، وندم على ماوقع، وعزم على عدم العود إليها، واستقامة على منهج الله.

فلا توبة مع الإصرار فالذى يمارس المعصية ويقيم عليها لا توبة له.

وقد لا يكون الإقلاع عن المعصية توبة، وذلك كمن ترك المعصية لمعنى آخر غير الندم، فمن ترك الفاحشة لعدم استطاعته لها، أو ترك الخمر لضررها وظل قلبه متعلقا بها لا يعد تائبا.. فإن التوبة عمل قلبى تصحبه حركة الجوارح فى استقامة واحدة نحو مرضاة الله تعالى.

ولكى يمحو المرء آثار معصيته يحتاج إلى التزود بالتقوى فإن الحسنة تمحو السيئة، قال الله تعالى «وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين»(٢).

---

(١) سورة النور — الآية ٣١

(٢) سورة هود — ١١٤

وإذا كانت المعصية متعلقة بحقوق العباد فلا بد من رد المظالم إلى أهلها أو مسامحتهم فيها ، وقد سأل رسول الله ﷺ أصحابه يوما فقال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » رواه مسلم .

إن العبد حين يبدأ طريقه إلى الله تعالى بالتوبة يأخذ فى الترقى من النفس الأمارة بالسوء ، إلى النفس اللوامة ، إلى النفس المطمئنة التى اطمأنت إلى ربها فى حكمه وحكمته ، وسلكت مسالك الأنبياء والصالحين ، واستحقت ذلك النداء الإلهى الكريم « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »[1] .

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر على سواء وتكون من الكفر والفسوق ، وتوبة الكافر هى إسلامه ، وتوبة العاصى هى

---

(١) سورة الفجر ، ٢٧ — ٣٠

استقامته ، قال الله تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف »(١) .

والتوبة بهذا المعنى تلتقي مع الاستغفار فإن قولنا لشخص : استغفر الله ، يساوي قولنا له : تب إلى الله . .

فعند الافتراق يكون اللفظان بمعنى واحد . .

فإن اجتمع اللفظان في عبارة واحدة اختلف المعنى ، فإذا قلت لشخص في جملة واحدة : استغفر الله وتب إليه ، أصبح الاستغفار من معاصي الماضي وأصبحت التوبة من معاصي المستقبل ، بمعنى اندم على ما مضى من سيئاتك واحذر أن تفعلها في المستقبل .

قال تعالى « وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين »(٢) .

والمسلم مطالب بالتوبة من الذنب وإن تكرر ، وكلما أحدث ذنبا جدد توبة ، عسى الله أن يهديه ، وفي صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال : أذنب عبد ذنبا فقال : اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب

(١) سورة الأنفال — ٣٨

(٢) سورة هود — ٥٢

فقال : أى رب اغفر لى ذنبي فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ..

ثم عاد فأذنب فقال : أى رب اغفر لى ذنبى ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك ، قال الراوى : لا أدرى أقال فى الثالثة أو الرابعة اعمل ما شئت » .

وقد وهم بعض الناس فظنوا أن مثل هذا الحديث دعوة إلى استمراء المعصية ، ولكن الحقيقة أن الحديث دعوة إلى التطهر المستمر حتى لا يظل الشيطان قابعا فى عقل الإنسان وقلبه ، فإن البديل للتوبة المتجددة هو سبيل المعصية الدائم ، ولهذا قيل للحسن : ألا يستحى أحدنا من ربه ، يستغفر من ذنوبه ثم يعود ، ثم يستغفر ثم يعود ؟ ! فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه ، فلا تملوا من الاستغفار .

مكفرات الذنوب

هناك من أعمال الخير والبر والمعروف ما يكسب الإنسان حسنات ويمحو عنه سيئات ويمنحه فضلا من الله وثوابا .. منها:

١ — الوضوء :

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب».

٢ — دعاء الوضوء :

روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء .

٣ — صلاة ركعتين بعد الوضوء :

روى البخارى ومسلم أن عثمان رضى الله عنه توضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال: من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لايحدث فيهما نفسه غفر له ماتقدم من ذنبه » .

٤ — الأذان :

روى أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما : قال قال رسول الله ﷺ « يغفر للمؤذن منتهى أذانه ويستغفر له كل رطب ويابس » .

٥ — الدعاء عقب الأذان :

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته — حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

٦ — الصلوات الخمس :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

٧ — السعى إلى المساجد :

روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال : من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة » .

٨ — صلاة الجمعة :

روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام » .

٩ — الصدقة :

روى الترمذى فى حديث معاذ ، قال رسول الله ﷺ : والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار .

١٠ — الصوم فى رمضان :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

١١ — صيام يوم عرفة :

عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن يوم عرفة قال : يكفر السنة الماضية والباقية » رواه مسلم والترمذى إلا أنه قال : صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى بعده والسنة التى قبله .

١٢ — صيام عاشوراء :

عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال : يكفر السنة الماضية » رواه مسلم .

١٣ — الحج :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

١٤ — العمرة :

روى للبخارى ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

١٥ — طلب العلم :

روى أبو داود وابن ماجه وابن حيان عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

١٦ — الجهاد :

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

١٧ — قراءة القرآن :

روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» .

١٨ — الذكر :

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك » .

١٩ — ابتلاء الحياة :

في صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » رواه البخاري .

المبحث الثانى

حكم مرتكب الكبيرة

- تعريف الكبيرة
- تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر
- مذاهب العلماء فى حكم مرتكب الكبيرة
- رد أهل السنة على المخالفين
- موقف أهل السنة من النصوص المكفرة

تعريف الكبيرة

اختلف العلماء فى تعريف الكبيرة إلى آراء متعددة منها :

١ — ضبطها بعض العلماء بالعدد وقالوا إنها سبع أو سبع عشرة، أوسبعون ، وحاولوا أن يحصروها من خلال النصوص الشرعية التى ذكرت أعدادا لها ، مثل قول رسول الله ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هن يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

وقول رسول الله ﷺ : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ! قالوا : بلى ، قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

وسئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قيل : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قيل ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك » .

وضبط الكبيرة بالعدد غير دقيق لأن تجميع النصوص لا يدل على الحصر ، وكان رسول الله ﷺ يجيب كل سائل بما يناسبه..

٢ — ذهب بعض العلماء إلى أن كل معصية تعد كبيرة نظرا لعظمة الله العلي الكبير ، فكيف يعصى الإنسان المخلوق الضعيف خالقه الأعظم ؟ !

وهذا المذهب يتنافى مع النصوص الشرعية التي تفرق بين الكبائر والصغائر مثل قوله تعالى « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما »[1] .

٣ — عرف بعض العلماء الكبيرة بأنها ما اتفقت الشرائع على تحريمه مثل الزنا والسرقة .

وهذا التعريف مرفوض لأن هناك معاصي حرمها الإسلام وجعل اقترافها كبيرة ولم تكن محرمة في الشرائع السابقة مثل شرب الخمر فقد لعن الله الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها — كما ورد بذلك الحديث الذي رواه البيهقي .

٤ — ضبطها بعض العلماء بتعريف قالوا فيه :

إن الكبيرة ما ترتب عليها حد في الدنيا .

ومن هنا أصبحت الكبائر محصورة في القتل والزنا والسرقة

---

(١) سورة النساء — ٣١

والقذف والحرابة ، وهذا يتنافى مع النصوص الشرعية التي تثبت وصف الكبيرة لمعاصٍ ليس فيها حد مثل أكل الربا وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين ... فهذه كبائر وليس فيها حد شرعي يقام على مرتكبيها .

٥ — التعريف المختار هو أن الكبيرة ما ترتب عليها حد في الدنيا أو وعيد شديد في الآخرة .

وبذلك نتلافى الاعتراض السابق فإن عقوق الوالدين مثلا كبيرة من الكبائر وإن لم يكن فيه حد شرعي يقام على العاق ، فإن النصوص قد توعدته في الآخرة بعذاب شديد . .

تقسيم الذنوب إلى كبائر وصغائر :

هناك أدلة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر ، منها :

١ — قوله الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » .

فقد جعل الله تعالى تكفير السيئات مترتبا على اجتناب الكبائر فتكون تلك السيئات هي الصغائر ، وإلا لما صح هذا التعليق ، فلو كان المراد بالسيئات الكبائر لأصبح المعنى إن تجتنبوا الكبائر نكفر عنكم الكبائر وهذا المعنى باطل .

٢ — قول الله تعالى: « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم »[1] .

فاللمم هو صغائر الذنوب ، من ألم إذا نزل نزولا من غير لبث طويل، ويقال ألمّ بالطعام إذا قلل من أكله ..

٣ — وفى صحيح الحديث قال رسول الله ﷺ : « ورمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر » .

---

(١) سورة النجم — ٣٢

مذاهب العلماء فى حكم مرتكب الكبيرة

اتفق العلماء على أن التوبة تجب ما قبلها ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، واتفقوا أيضا على أن من استحل معصية أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر . .

واختلفوا فيمن ارتكب معصية كبيرة غير مستحل لها بل فعلها وهو مدرك لحكم الله فيها ثم لم يتب من ذنبه وأصر عليه حتى مات . .

وكانت المذاهب فى هذه المسألة على النحو التالى :

١ — الخوارج : وهم الذين خرجوا على الإمام على بن أبى طالب بعد ما قبل التحكيم فى نزاعه مع معاوية بن أبى سفيان .

وهؤلاء يكفرون مرتكب الكبيرة ويحكمون بخلوده فى النار إن مات بلا توبة . .

ويستدلون بقوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما »[١] .

---

(١) سورة النساء — ٩٣

ويقول رسول الله ﷺ : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن .... » .

٢ — المرجئة : وهم الذين أرجأوا أمر الأمة إلى الله ، ولم يدخلوا فى الصراع الدائر بين معاوية وعلى رضى الله عنهما .

وهؤلاء يقولون لايضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فإذا كان الكافر تذهب أعماله الصالحة هباء منثوراً لأنه فاقد للإيمان الذى هو أساس قبول العمل فإن المؤمن الذى استقر فى قلبه الإيمان لايضره ما يعمل من المعاصى ..

ويستدلون بقوله تعالى : « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا »[1] .

ويقول رسول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق .... » .

٣ — المعتزلة : وهم أصحاب واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى واختلف مع أستاذه ..

وهؤلاء يقولون إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن لأنه عمل

---

(١) سورة النساء — ١١٦

المعصية ، وليس بكافر لأنه ينطق بالشهادتين ولكنه فى منزلة بين المنزلتين ويسمونه فاسقا وهو مخلد فى النار . .

ويستدلون بعموم الآيات والنصوص التى رتبت العقاب على المعصية مثل قوله تعالى: « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها »(١) .

والعاصى عندهم اسم يتناول الفاسق والكافر وكلاهما مخلد فى النار

وقوله تعالى : « إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون »(٢) .

والمجرم عندهم يتناول الكافر والفاسق . .

٤ — أهل السنة والجماعة : وهؤلاء يجمعون فى اجتهادهم بين العقل والنقل ، ويوفقون بين النصوص ويقولون لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله وما لم يكن من الكبائر المكفرة كالشرك بالله أو إنكار معلوم من الدين بالضرورة . .

ويستدلون بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى

---

(١) سورة النساء — ١٤

(٢) سورة الزخرف — ٧٤

له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم »(١) .

ووجه الاستدلال النداء بوصف الإيمان في قوله « يا أيها الذين آمنوا » وكذلك وصف القاتل بالأخ في قوله : « فمن عفي له من أخيه شيء » فسمى ولي القتيل أخا للقاتل والمراد أخوة الإيمان وليس أخوة النسب قطعا ..

وقد تحقق هذا المعنى أيضا في قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما » فسماهم مؤمنين رغم قتالهم ...

وجاء هذا المعنى في الحديث الشريف : « من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه » رواه البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه .

---

(١) سورة البقرة — ١٧٨

رد أهل السنة على المخالفين

الرد على الخوارج : يفهم أهل السنة قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها .. » على أحد الوجوه الآتية:

١ — الوصف بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق، فإذا قلت لشخص : « احترم العالم » فيكون سبب الاحترام هو العلم .

فقوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا » أى قتله من أجل إيمانه ، والقاتل حينئذ لا يكون إلا كافرا يتعقب المؤمنين ، فالآية تتحدث عن قتل الكافرين المؤمنين .

ولو كان المراد مطلق القتل ما كان للتقييد بوصف الإيمان معنى ، ولجاءت بتعبير النفس بدل المؤمن ، كما قال تعالى «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا»[1]

ولا يتصور أن يقتل مؤمن مؤمنا متعمدا من أجل إيمانه وإنما قد يقتله سرقة أو غضبا أو لأى غرض آخر سوى الإيمان .

٢ — ولو فرضنا جدلا أن الآية فى المؤمنين فيمكن تفسير الخلود بالمكث الطويل وليس بالمكث الأبدى فإن القاتل الذى

---

(١) سورة المائدة — ٣٢

مات من غير توبة قد يعذب فى جهنم عذابا بقدر معصيته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة فالخلود الأبدى للكافرين فقط والخلود المؤقت لعصاة المؤمنين .

ويفهم أهل السنة الحديث الشريف : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » على أنه نفى لكمال الإيمان وليس لحقيقة الإيمان ، فالزانى يكون ناقص الإيمان أثناء ارتكابه لجريمته .

الرد على المرجئة :

يفهم أهل السنة قوله تعالى «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» على أن مغفرة ما دون الشرك موقوفة على المشيئة الإلهية ، ولا أحد يدرى هل يشمله العفو الإلهى أم لا ؟

والآية لا تنفى التعذيب المؤقت وكذلك الحديث الشريف «من مات لا يشرك بالله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق» .

فهل دخول الجنة يكون ابتداء بلا تعذيب أو يكون بعد تعذيب مؤقت ؟ كلاهما جائز ولا حرج شرعاً .

فالمعصية تضر مع الإيمان وقد يعذب المؤمن عـــذابا مؤقتا .

الرد على المعتزلة :

ما استدل به المعتزلة عموميات ليست نصا فى الموضوع ولا ترفع الخلاف ، فقوله تعالى «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها» .

فالعاصى إن كان كافرا فهو مخلد فى النار أبدا وإن كان فاسقا مرتكبا لكبيرة دون الكفر فهو معذب عذابا مؤقتا وقد يعفو الله عنه لقوله تعالى «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» .

وقد جاءت أحاديث كثيرة تفيد انقطاع العذاب عن المؤمنين :

فقد أخرج مسلم فى صحيحه حديثا مطولا فى الشفاعة رواه أبو سعيد الخدرى جاء فيه :

يقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط» .

وفى حديث آخر: يدخل الله أهل الجنة الجنة، يدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ثم يقول : انظروا من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون فيها حمما

قد امتحشوا ، فيلقون فى نهر الحياة أو الحيا فينبتون فيه كما تنبت الحبة إلى جانب السيل ، ألم تروا كيف تخرج صفراء ملتوية »[١] .

وقد جاء فى حديث صحيح وصف لهؤلاء بعد أن خرجوا من نهر الحياة فقال : فيخرجون كاللؤلؤ ، فى رقابهم الخواتم ، يعرفهم أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء الله ، الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه » .

كما جاء فى الحديث الصحيح وصف نعيم هؤلاء الذى منحه الله لهم فقال : ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

وقد يتوهم البعض أن هذا الاتجاه يشجع على المعصية ويدفع الناس إلى مقارفة الذنوب . . وهذا خطأ فإن المسلم يعيش بين أمن وخوف فلا يقنط ولا يسرف ، قال تعالى « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه »[٢] ،

---

(١) فيخرجون — بالبناء المجهول — ، والحمم — بضم الحاء وبفتح الميم — الفحم ، وامتحشوا — بفتح التاء والحاء — احترقوا ، الحيا : المطر ، والحبة — بكسر الحاء — بذر البقول والعشب .

(٢) سورة الزمر — ٩ .

وقد جعل القرآن اليأس من أوصاف الكافرين فقال «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»(١) .

وجعل القنوط من أوصاف الضالين فقال «قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون»(٢) .

وجعل الإسراف في الأمل من أوصاف الخاسرين فقال : «أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون»(٣) .

وقد كان رسول الله ﷺ أول العابدين وأول المؤمنين وخير خلق الله أجمعين ومع ذلك قام من الليل حتى تفطرت قدماه وكان يستغفر الله في اليوم مائة مرة .

---

(١) سورة يوسف — ٨٧
(٢) سورة الحجر — ٥٦
(٣) سورة الأعراف — ٩٩

موقف أهل السنة

من النصوص المكفرة

جاءت نصوص شرعية رتبت الكفر على بعض الكبائر مثل قوله ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

« لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

والجواب أن الكفر نوعان : كفر عملى وكفر اعتقادى .

وهذا التقسيم بناء على أن الإيمان تصديق وعمل ، فالكفر المرتبط بالتصديق هو المخرج عن الملة ، والكفر المرتبط بالعمل هو كبيرة وليس مخرجا عن الملة .

وإن قلنا إن الإيمان تصديق فقط فالكفر فى هذه النصوص كفر مجازى على سبيل التشبيه ، إذ الكفر الحقيقى المخرج عن الملة هو المتصل بالتصديق والاعتقاد .

وقد جعل الإمام البخارى فى صحيحه بابا من كتاب « الإيمان » بعنوان : « باب كفران العشير وكفر دون كفر » ،

وساق هذا الحديث بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما

قال : قال النبي ﷺ: أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط » .

وفي شرح ابن حجر على الحديث ساق هذا النص :

قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرحه : مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيمانا، كذلك المعاصي تسمى كفرا ، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة » .

ثم كتب الإمام البخاري بابا آخر عقب الباب السابق بعنوان: «باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا الشرك» وساق هذا الحديث بسنده عن المعرور قال : لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة ، فسألت عن ذلك فقال : إني ساببت رجلا فعيرته بأمه ، فقال لي النبي ﷺ : يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟! إنك امرؤ فيك جاهلية ، إخوانكم خولكم(١) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما

---

(١) خول الرجل حشمه وخدمه ، والواحد خائل ، وقد يكون الخول واحدا ، وهو اسم يقع على العبد والأمة ، والتخول التعهد ، والتخويل : التمليك .

يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وعلق الإمام ابن حجر قائلا :

إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهى من أخلاق الجاهلية ، والشرك أكبر المعاصى ولهذا استثناه ، ومحصل الترجمة[١] أنه لما قدم أن المعاصى يطلق عليها « الكفر » مجازا ، على إرادة كفر النعمة لا كفر الجحد — أراد أن يبين أنه كفر لا يخرج عن الملة » .

فهم قوله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»

فى سورة المائدة جاء قوله تعالى :

«إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»[٢] .

---

(١) العنوان الذى ذكره البخارى .
(٢) سورة المائدة — الآية ٤٤

إن سورة المائدة من السور التى تناقش اليهود والنصارى ، وتلزمهم ضرورة الإيمان برسالة محمد ﷺ الذى جاء بالحق وصدق المرسلين .

ولكن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا وطمسوا البشارات فكانوا أحق الناس باسم الكفر ، فهم لم يسيروا وفق المنهج الإلهى فى الاعتقاد .

قال تعالى «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النـــار ، وما للظالمين من أنصار»(١).

وقال جل شأنه : قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبد الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل»(٢) .

ثم إن للآية سبب نزول يرتبط بإنكار اليهود لحكم الله فى الرجم ، عندما جاءوا إلى رسول الله يستفتونه فى أمر رجل وامرأة

(١) سورة المائدة — ٧٢

(٢) سورة المائدة — ٦٠

زنيا ، عسى أن يجدوا لديه حكما مخففا ، وزعموا أن التوراة ليس فيها حكم إلهى بشأن الزنا .

وقد وبخهم القرآن على موقفهم هذا ، وشنع عليهم ، وتعجب من فعلهم فقال «وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين(١).

ولهذا فإن قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

يعنى من أنكر مشروعية الحكم وكذب بالتنزيل ورفض الإيمان بمنهج الله .

أما الحاكم الذى لا يلتزم فى حكمه بشرع الله عز وجل دون إنكار له فهو مرتكب لكبيرة من الكبائر ، يوصف بالفسق والظلم ولا يخرج من الملة .

وعلى هذا المعنى جمهور العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء.

وقد ذكر الإمام الرازى فى تفسيره أربعة معان ضعفها كلها ثم ذكر رأيا خامسا ارتضاه ونصه :

قال عكرمة : قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله » إنما يتناول

---

(١) سورة المائدة — ٤٣

من أنكر بقلبه وجحده بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله ، وأقر بلسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده ، فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية ، وهذا هو الجواب الصحيح ، والله أعلم[1].

ونلاحظ أن الإمام الرازى جعل التارك للحكم حاكما بما أنزل الله طالما أنه مؤمن به مصدق بقلبه . أى أن الحكم وعدم الحكم مرتبط بمسألة التصديق القلبى .

وقال الإمام القرطبى فى تفسيره :

قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » و «الظالمون» ، و «الفاسقون» نزلت كلها فى الكفار ، ثبت ذلك فى صحيح مسلم من حديث البراء ، وعلى هذا المعظم ، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقيل : فيه إضمار أى ومن لم يحكم بما أنزل الله ردا القرآن ، وجحدا لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قاله ابن عباس ومجاهد ، فالآية عامة على هذا .

قال ابن مسعود والحسن : هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أى معتقداً ذلك ومستحلا له

---

(١) التفسير الكبير حـ ١٢ صـ ٧ ط دار الفكر .

فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ...»[1] .

وساق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أقوال العلماء في تفسير الآية ثم قال :

واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر والظلم والفسق، كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مرادا به المعصية تارة والكفر المخرج من الملة أخرى .

«ومن لم يحكم بما أنزل الله» معارضة للرسل وإبطالا لأحكام الله فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة ، ومن لم يحكم بما أنزل الله معتقدا أنه مرتكب حراما ، فاعل قبيحا فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة ...»[2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن جـ ٦ ص ١٩٠ ط مؤسسة مناهل العرفان .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن جـ ٢ ص ١٠٤ ط الرئاسة العامة لإدارات البحوث بالرياض .

وقال شارح العقيدة الطحاوية :

وهنا أمر يجب أن يتفطن له ، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة ، ويكون كفرا إما مجازيا وإما كفرا أصغر . وذلك بحسب حال الحاكم ..

فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب ، وأنه مخير فيه ، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله — فهذا كفر أكبر ..

وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله ، وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ، ويسمى كافرا كفرا مجازيا أو كفرا أصغر ..

وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه ، فهذا مخطىء ، له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور »[1] .

هكذا يكون صفاء الفهم لدين الله عز وجل ، بعيدا عن الانفعال الطائش والتقليد الأعمى والغوغائية المشينة . .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية صـ ٣٦٣ ط المكتب الإسلامي .

وإن بلاد المسلمين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب قد حكمها المستعمر الدخيل أحقابا من الزمن ، طمس فيها الهوية الإسلامية ، وبدد الطاقات وأهلك الحرث والنسل ، فلما حصلت هذه البلاد على استقلالها وجدت نفسها على مفترق طرق . .

والأمر حينئذ يحتاج إلى مضاعفة الجهد والجهاد لعلماء الأمة وأمرائها كى يلتقى الجميع على كلمة سواء ، يجددون بها ولاء الأمة لدينها وإسلامها وتأخذ بأيدى أبنائها إلى صراط الله المستقيم فى رفق ناصح ، ورحمة معلم ، وحكمة داعية . .

المبحث الثالث

الحكم بالكفر

- الآثار الدنيوية
- الحكم على الشخص أو الوصف
- الآثار الأخروية
- موقف المسلم
- لفظ الدين فى القرآن

الحكم بالآثار الدنيوية

الحكم بالكفر حكم شرعي بمعنى أن الله تعالى أمر بالاعتقاد في وحدانيته سبحانه وملائكته الأطهار ورسله الأخيار وكتبه المقدسة ، وشرع لعباده مايحقق لهم سعادة الدنيا وكرامة الآخرة، فمن أنكر شيئا مما علم من الدين بداهة حكم بكفره ..

ويترتب عـــلى الحكم بالكفر جانب دنيوى وجانب أخروى :

فالجانب الأخروى هو الخلود في النار أبد الآباد ودهر الداهرين ، قال الله تعالى « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين »(١) .

وقال جل شأنه « إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا ، لا يجدون وليا ولا نصيرا »(٢) .

---

(١) سورة آل عمران — الآية ٩١

(٢) سورة الأحزاب — الآية ٦٤ ، ٦٥

والجانب الدنيوى على قسمين :

١ — إن كان الكافر مرتدا بعد إيمان فحكمه القتل ولا يمكن من نكاح مسلمة ولا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين لقوله — ﷺ — فى صحيح البخارى : من بدل دينه فاقتلوه » .

وقوله — ﷺ — فى صحيح مسلم : لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

وتنفيذ حكم الردة إنما هو من اختصاص الإمام بعد إجراءات قضائية كالمناقشة وعرض الأدلة وطلب التوبة والإمهال ثلاثة أيام ..

والمرتد حينئذ هو إنسان مجاهر بكفره ، داع إلى ضلالته يخون مجتمع المسلمين ويتربص بهم الدوائر ، فهو أشبه ما يكون بما يسمى حاليا مرتكب الخيانة العظمى ..

أما من كتم عقيدته ولم يظهر ما يخالف الإسلام فأمره إلى الله ونعامله على حسب ما ظهر منه .

٢ — إن كان الكافر بالأصالة والوراثة ويعتنق دينا ما فهو على ثلاثة أقسام :

(أ) كافر يعيش في ديار المسلمين فله حق الذمة ويحظى باحترام المسلمين ويصان دمه وماله وعرضه، قال تعالى «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين»[1].

(ب) دولة كافرة تحفظ العلاقات الدولية ولا تعتدى على المسلمين ولا تظاهر عليهم أحدا، فيصدق فيها قول الله تعالى «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم»[2].

(حـ) دولة كافرة محاربة تتعقب المسلمين وتطاردهم وتعتدى على حماهم فالجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة .. قال الله تعالى «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»[3].

---

(١) سورة الممتحنة — الآية ٨
(٢) سورة التوبة — الآية ٧
(٣) سورة البقرة — الآية ١٩٠

الحكم على الشخص أو الوصف

الحكم على إنسان ما بالكفر أو بارتكاب كبيرة من الكبائر فى آثاره الدنيوية من إقامة الحدود لا يكون إلا للقضاء، لقوله ﷺ «لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم، لكن البينة على المدعى واليمين على من أنكر» [حديث حسن رواه البيهقى وبعضه فى الصحيحين] فالقضاء يقوم على الشهود والبينات وبذل الجهد فى الوصول إلى الحق.

وقد أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أم سلمة زوج النبى ﷺ: أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو يذرها».

وهذا الحديث الشريف يضعنا أمام ثلاث قضايا مهمة فى فلسفة القضاء:

الأولى: قوله ﷺ «إنما أنا بشر» والمقصود هو التنبيه على أن الحاكم أو القاضى لا يعلم الغيب ولا يطلع على بواطن الأمور، وإنما يحكم بين الناس بالظاهر وما استقر عليه غالب ظنه واطمأن إليه قلبه، والله يتولى السرائر، ولهذا قال رسول الله ﷺ للزوجين المتلاعنين: حسابكما على الله، أحدكما كاذب.

الثانية : قوله ﷺ « فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له » ، وهنا تظهر أهمية الدفاع والمرافعة والمحاماة ، فإن كل خصم يهتم بأن يظهر بينته وما يؤيد دعواه ، فإن الدعوى بغير دليل لاقيمة لها .

وما على القاضى إلا أن يتفطن لبينة كل من الخصمين ، وأن يجتهد فى التعرف على الحق والعدل ، وأن يتحرى الدقة البالغة فى جوانب الدعوى كلها ثم بعد ذلك يصدر حكمه الذى توافرت له أسباب القوة واليقين .

الثالثة : قوله ﷺ «فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعةمن من النار فليحملها أو يذرها» .

هذا القول الكريم يضعنا أمام نقطة مهمة وهى أنه ليس كل حكم قضائى عدلا وصدقا فى الواقع ونفس الأمر ، بـــل القضية مرهونه بالاجتهاد والتحرى والتثبت . . وكم وقعت أحكام نتيجة شهود الزور ، فمن صدر له حكم قضائى على وجه الخطأ فهو المسئول عنه أمام الله تعالى ، وقد انتهت مهمة القاضى بإصدر الحكم بناء على ما اطمأن إليه من البينات ثم ينتقل الحكم ليصبح أمانة فى عنق المحكوم له فهو أدرى الناس بموقفه حقا كان أو باطلا .

(٤ — قضية التكفير)

الحكم بالآثار الأخروية

أما الحكم على إنسان ما بالكفر أو بارتكاب كبيرة من الكبائر في آثاره الأخروية فتروك لعدل الله تعالى ، فهو وحده المطلع على خفايا النفوس ، وميزان الله عدل ، لا يظلم مثقال ذرة .

ورب شخص ارتكب جرائم تبدو في أعين الناس كبائر تؤدي بصاحبها إلى أودية جهنم ولكن له من الأعمال أو المواقف أو النيات ما يمحو ذلك كله ، وقد جاءت النصوص كثيرة حول هذا المعنى منها :

١ — خلال فترة الإعداد لفتح مكة عمد رجل من المسلمين يسمى حاطب بن أبي بلتعة وكتب رسالة إلى أهل مكة يعلمهم فيها بما عزم عليه الرسول القائد من غزوهم وتطهير الكعبة من رجسهم ، وحمل الرسالة امرأة من قريش كانت في المدينة وجعل لها جعلا على أن تبلغها قريشا .

ونزل الوحي يطلع الرسول ﷺ على ما فعل حاطب ، وبعث الرسول جماعة من فرسان المسلمين يقودهم علي بن أبي طالب وأمرهم أن يلحقوا بالمرأة وينتزعوا الرسالة منها .

ووقف حاطب يدافع عن نفسه قائلا : لا تعجل علي ، إني كنت امرءا ملصقا في قريش ، ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من

المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتى .

وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه وأن كتابى لا يغنى عنهم شيئا » .

وقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه قائلا : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق .

ولكن الرسول ﷺ قبل عذر الرجل قائلا :

إن الرجل صدقكم ، إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك ياعمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم قد غفرت لكم » .

لقد التمس الرسول الكريم عـــذرا للرجل وقدر له سابق جهاده مع المسلمين .

٢ ـــ أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب ، فأتاه ، فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ، فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة .

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على رجل عالم ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ، فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين

التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها ناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء .

فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله .

وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط .

فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة » .

وفى بعض الروايات : « فلما أتاه الموت ناء بصدره »

« فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها » .

« فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى » .

٣ — أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له

فغفر له » قالوا : يارسول الله وإن لنا فى هذه البهائم لأجرا فقال : فى كل كبد رطبة أجر » .

وفى رواية أخرى :

أن امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار ، يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها(١) فغفر لها » .

٤ — أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وإن الله تعالى قال : من ذا الذى يتألى(٢) على أن لا أغفر لفلان . فإنى قد غفرت لفلان وأحبطت عملك » أو كما قال .

٥ — أخرج مسلم فى صحيحه عن ربعى بن حراش قال : اجتمع حذيفة وأبو مسعود فقال حذيفة : رجل لقى ربه فقال : ماعملت ؟ قال : ماعملت من الخير إلا أنى كنت رجلا ذامال فكنت أطالب به الناس ، فكنت أقبل الميسور وأتجاوز عن المعسور فقال : تجاوزوا عن عبدى .

قال أبو مسعود : هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول .

---

(١) الموق — بضم الميم — الخف ، فارسى معرب .
(٢) يتألى — يحلف .

وفى رواية أخرى :

«حوسب رجل ممن كان قبلكم ، فلم يوجد له من الخير شىء إلا أنه كان يخــالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر ، قال الله عز وجل : نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه» .

من هذه النصوص يتجلى أن الحكم على الناس بما يلقونه فى الآخرة بأعيانهم هو من اختصاص الله تعالى وحده ، ولا أحد يتحكم فى القدر الإلهى الأعلى ، ولا أحد يملك خزائن رحمة الله ، وإذا مات إنسان فقد أفضى إلى ما قدم ولا يجوز لمسلم أن يقيم من نفسه حكما على أعمال شخص بذاته بل ندع ذلك لعلام الغيوب .

موقف المسلم

والمسلم فى حياته اليومية مطالب بالحكم على الأوصاف فهو يمقت المعصية ويؤكد الوعيد ويلعن كل منحرف بوصفه لا بشخصه، فنقول مثلا : لعنة الله على الظالمين ، والفاسقين ، والكافرين ، والسارقين . . وهكذا دون أن نخصص شخصا بذاته أو نخص إنسانا بعينه فإن العواقب خفية والعبرة بالخواتيم . .

فلا يقال : لعنة الله على فلان حتى ولو كان كافرا فربما تاب وأسلم ، وقد جاءت أحاديث بالنهى عن لعن شخص بعينه، فى صحيح البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب أن رجلا كان على عهد النبى ﷺ كان اسمه عبدالله ، وكان يلقب حمارا ، وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان النبى ﷺ قد جلده فى الشراب ، فأتى به يوما فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبى ﷺ : لا تلعنوه فو الله ما علمت[1] أنه يحب الله ورسوله »
وفى حديث آخر رواه البخارى :

---

(١) قيل : ما زائدة ، وقيل إن المفعول محذوف أى ما علمت عليه سوءا ثم استأنف وقال إنه يحب الله ورسوله ، وقيل إن التاء مفتوحة فى «علمت» أى أنك لا تعلم أنه يحب الله ورسوله .

أتى النبي ﷺ بسكران فأمر بضربه ، فمنا من يضربه بيده ، ومنا من يضربه بنعله ، ومنا من يضربه بثوبه ، فلما انصرف قال رجل : ماله أخزاه الله ، فقال رسول الله ﷺ لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم».

وقد جاءت أحاديث بلعن الأوصاف دون الأشخاص ، ففي صحيح البخاري بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده»

وقد ساق البخاري هذا الحديث تحت عنوان، باب لعن السارق مالم يسم» .

لفظ اللعن فى القرآن

والمتتبع للفظ اللعن ومشتقاته فى القرآن الكريم يجد أنه ارتبط بأوصاف استوجبت اللعن ولم يتعلق بشخص واحد بذاته، حتى عندما دعى به على إبليس جىء بالوصف المناسب وهو التمرد والشيطنة . . قال تعالى « وإن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله، وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله »(١) .

وعندما جاء اسم إبليس ذكر معه سبب الحكم فقال تعالى : «قال ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين»(٢) .

لقد ساق القرآن حكم اللعنة على أوصاف الكفر والظلم والنفاق ونقض الميثاق ..الخ ولنقرأ بعض هذه النصوص :

« إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا »(٣) .

---

(١) سورة النساء ١١٧ : ١١٨

(٢) « ص ٧٥ : ٧٨

(٣) « الأحزاب ٦٤

« ألا لعنة الله على الظالمين »[1] .

« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم »[2]

وخلال حديث القرآن الطويل عن قصص الأنبياء لم يرد اسم شخص فى معرض الحكم عليه بالكفر اللهم إلا هامان وقارون وأبالهب[3] .

ودار الحديث القرآنى عن الملأ الذين كفروا واستكبروا ، والصابئين والمجوس والذين أشركوا واليهود والنصارى والأحبار والرهبان وأصحاب السبت وأصحاب الأخدود وأصحاب الفيل وأصحاب الرس .. الخ .

وعندما كان الأمر يقتضى تحديد شخص بعينه باعتباره محور القصة أبى القرآن المجيد أن يذكر اسمه واكتفى بوصفه القريب ، وذلك مثل امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة العزيز ، وابنى آدم ، وهكذا . .

---

(١) سورة هود — ١٨
(٢) سورة المائدة — ١٣
(٣) أما كلمة فرعون فليست اسما وإنما هى لقب لكل من حكم مصر القديمة ولهذا يقال فرعون موسى فى محاولة لتحديد الفترة الزمنية .

ومما يزيد الامر هنا تعظيما واهتماما أن المتحدث فى هذه المواقف كلها هو الله الذى يعلم السر وأخفى . فما بالنا نحن البشر الذين نغفل وننسى ويقصر بنا الفهم ..

إننا جميعا إخوة نريد أن نعيش سعداء بدين الله ، نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ونقدم النصيحة خالصة لمن حاد عن الطريق ، ولسنا نمقته وإنما نمقت عمله ، ولسنا نحقره وإنما نحقر المعصية ، فإذا عاد فرحنا به ، وإذا استمرأ المعصية أشفقنا عليه ودعوناه ودعونا له ، وإذا جاهر بها وأعلن دفعنا به إلى ساحة القضاء العادل ليطبق عليه الحد الشرعى زجرا لمن على شاكلته وجبرا لذنبه عسى الله أن يتوب عليه .

المبحث الرابع

الحاكمية

- مفهوم الحاكمية
- معانى حاكمية الله تعالى
- الحكومة الإسلامية

مفهوم الحاكمية

شاع بين الجماعات الإسلامية أن الحاكمية لله وأن المنازعة في حاكمية الله كفر.

وقد يكون مفهومهم صحيحا لكن تعبيرهم خطأ ، فالحاكمية نسبة إلى الحاكم ، والحاكم في دنيا الناس لا يكون إلا بشرا ، وقد يسمى إماما أو خليفة أو أميرا أو ملكا أو رئيساً . . فهذه كلها أسماء لمفهوم واحد هو سياسة الدنيا بالدين وقيادة الناس بشرع الله ..

فالحاكمية كالإمامة والخلافة هي للبشر وليست لله بمعنى أن الحاكم بشر يحكم بما أنزل الله . .

ولسنا نعرف لفظ الحاكمية على مدى التاريخ الإسلامي إلا في الحقبة الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري ، عندما أطلقها الشيخ أبو الأعلى المودودي ، وردها الشهيد سيد قطب ، وتمسك بها بعض الشباب .. وهو اصطلاح لا دليل عليه[1] .

وقد جاء القرآن المجيد لإسناد الحاكمية للبشر في كثير من آياته، قال تعالى « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما »[2] .

---

(١) رفع الخوارج شعار « لا حكم إلا لله » ، ورده عليهم الإمام علي بن أبي طالب وقال : كلمة حق أريد بها باطل ..

(٢) سورة النساء — ١٠٥

فالفعل «لتحكم» فاعله ضمير مستتر تقديره «أنت» يرجع إلى رسول الله ، فيكون الحاكم هو الرسول ومنهج حكمه هو ما أنزل الله .

وفى آيات سورة المائدة التى يكثر الاستدلال بها نجد الحاكم بشراً يطالب بالحكم بما أنزل الله وإلا أصبح كافراً أو فاسقا أو ظالما .. قال تعالى :

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

— ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »

فمن يحكم ومن لا يحكم لا يكون إلا بشرا ..

وقد دعا القرآن إلى تحكيم البشر فى هدى الحج فقال «فجزاء مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم»[1] .

وفى الخلافات الزوجية فقال «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً»[2] .

---

(١) سورة المائدة — ٩٥
(٢) سورة النساء — ٣٥

وسمى القرآن القضاة حكاما فقال « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون»(١).

وفى المقابل نجد أن القرآن المجيد أطلق على الله تعالى اسم «أحكم الحاكمين» فقال «ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين»(٢).

كما أطلق على الله تعالى اسم « خير الحاكمين » فقال : « واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين »(٣) .

فالتعبير بلفظ « خير الحاكمين » أو « أحكم الحاكمين » يسمح بإطلاق لفظ الحاكم على الله تعالى وعلى البشر لكن بمعنيين مختلفين كشأن كافة الألفاظ التى يجوز فيها الاشتراك فإن ما يخص الله تعالى ليس كمثله شىء ، فهو فى حقيقته مختلف تماما عما يماثله فى الإطلاق على البشر كالعالم والكريم والحليم والرشيد ... إلخ .

---

(١) سورة البقرة — ١٨٨
(٢) سورة هود — الآية — ٤٥
(٣) سورة يونس — ١٠٩

معانى حاكمية الله تعالى

وقد جاء إطلاق لفظ الحاكم على الله تعالى بثلاثة معان هى :

١ — الحكم الكونى :

يعنى السنن الكونية والنواميس التى تحكم الكائنات فهذا حكم الله وحده لا يستطيع أحد تغيير السنن أو إرجاءها أو التمرد عليها

ونقرأ فى هذا المعنى آيات منها :

قوله تعالى « قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ، مالهم من دونه من ولى ، ولا يشرك فى حكمه أحداً »(١) .

فتدبير الله للكائنات والأحداث خاص به وحده لا دخل للبشر فى ذلك .

وقوله تعالى « أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب »(٢) .

فنقصان الأرض بمعنى إظهار الإسلام على أنقاض دولة

---

(١) سورة الكهف — ٢٦

(٢) سورة الرعد — ٤١

الكفر ، أو بمعنى اختلاف أحوالها وتبدل أحداثها أو بمعنى تأثير الماء في اليابسة ، فتلك سنن كونية متى أرادها الله وقعت ولا راد لحكمه . .

وقوله تعالى « قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين »[١]

فهؤلاء المكذبون يستعجلون العذاب استهزاء بالوعيد فأمر الله رسوله أن يعلن الحقيقة الكبرى وهى أن الجزاء والعقاب مرهون بإرادة الله وحده وله الحكمة البالغة فى التعجيل أو التأخير . .

٢ — الحكم التشريعى :

بمعنى أن الله تعالى وحده هو الذى ينزل الوحى على من اصطفى من عباده ليبين للناس الحق والباطل ، والخير والشر ، والحلال والحرام فى العقائد والمعاملات ، وهو سبحانه أعلم بما يصلح عباده ويصلح لهم . .

ونقرأ فى هذا المعنى قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد »[٢] .

---

(١) سورة الأنعام — ٥٧

(٢) سورة المائدة — ١

فالحكم هنا بمعنى التشريع المتعلق بالمقصود والمأكولات الحيوانية فى الحل والحرم ..

ونقرأ قول الله تعالى « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»(١) .

فالحكم هنا تشريعى يتعلق بالعقيدة القائمة على التوحيد الخالص ..

وفى شأن النساء المؤمنات اللاتى هاجرن بعد صلح الحديبية نزل حكم إلهى باستثنائهن من تطبيق شرط إعادة من جاء مسلما ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن، الله أعلم بإيمانهن، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر، واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم»(٢) .

والحكم الإلهى التشريعى هو تكليف للبشر يمكن قبوله

---

(١) سورة يوسف — ٤٠

(٢) سورة الممتحنة — ١٠

فيكون الإيمان، ويمكن رده فيكون الكفر ، وقد جعل الله المؤمنين جزاء هو بركة الدنيا وحسن جزاء الآخرة ، وجعل للكافرين ضنك الحياة وسوء المنقلب .

قال تعالى « قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »[1] .

٣ — الحكم الأخروى :

بمعنى أن الله تعالى يبعث الناس من قبورهم ويسوقهم للحساب والجزاء ، ويقف الخلائق جميعا ليحكم بينهم الواحد ، القهار قال تعالى « الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون »[2] .

وقال جل شأنه « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون »[3] .

---

(١) سورة طه — ١٢٣ : ١٢٧

(٢) سورة الحج — ٦٩

(٣) سورة الزمر — ٤٦

الحكومة الإسلامية

والذى نريد أن نؤكده هو أن الحاكم فى الإسلام رجل لا عصمة له ، وهو مطالب أن يلتزم بشرع الله ودينه ، وليس شرطا أن يكون أفضل الناس ولكنه بالتأكيد أكثرهم حملا ..

والحاكم المسلم يأتى به أهل الحل والعقـــد باختيار حر ، واستفتاء عام يسمى البيعة ، ويقوم حكمه على العدل والشورى ..

قال الله تعالى « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا »[١] .

وأمر الله رسوله فقال « وشاورهم فى الأمر»[٢] .

وجعل الله واسطة عقد صفات المؤمنين الشورى فقال :

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون»[٣] .

---

(١) سورة النساء — ٥٨

(٢) سورة آل عمران — ١٥٩

(٣) سورة الشورى — ٣٨

ولعل قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم تعد أساسا صحيحا لما يسمى الآن مجلس الشعب أو مجلس الأمة أو مجلس الشيوخ . فإن مهمة هذه المجالس هى المراقبة لتصرفات الحاكم ومحاسبة المسئولين . .

وإن القول بأن الديمقراطية كفر قول ملقى على عواهنه ليس له صفاء الفهم للدين ولا للدنيا ، فإنه لامشاحة فى الاصطلاح ، كذلك فإن القول بأن السلطة للشعب كفر مراهقة فكرية ، فإن مجتمع المؤمنين هو الذى يراقب الحاكم وهو الذى يعينه وهو الذى يعزله . .

ثم إن فى مصالح الدولة ما يحتاج إلى تشريعات ليس لها نص فى كتاب الله ولا سنة رسوله . .

ولهذا كانت الأدلة الشرعية قائمة على :

١ — القرآن الكريم ٢ — السنة الصحيحة

٣ — الإجماع ٤ — القياس

٥ — الاستحسان ٦ — المصالح المرسلة

٧ — العرف ٨ — الاستصحاب

٩ — شرع من قبلنا .

ويمكن مراجعة معانى هذه الأدلة فى كتب أصول الفقه[1] .

ومن هنا فإن ما يسمى بالحكومة الدينية — كما هو المصطلح الغربى المسمى الثيوقراطية — والتى تقوم على نظرية الحق الإلهى وعصمة الملوك وتقديس الحكام ، لا علاقة لها بالإسلام وتتنافى مع عقيدة التوحيد الخالص لله رب العالمين ، وقد رفضها القرآن المجيد بمثل قوله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون»[2] .

ولعل المناظرة التى جرت فى معرض الكتاب الدولى بالقاهرة بتاريخ ٤ من رجب سنة ١٤١٢ هـ — ١٩٩٢/١/٨ م حول الحكومة الدينية والحكومة المدنية ، فى مواجهة ساخنة بين الإسلاميين والعلمانيين — كانت فى غير محلها ، فالحكومة الدينية لا تمثل الإسلام ، والحكومة المدنية ليست وقفا على العلمانيين ..

فإن الحكومة الإسلامية نموذج فريد بين أنواع الحكم

---

(١) راجع كتاب «أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف .

(٢) سورة التوبة — ٣١

التى تعارف عليها البشر قديما وحديثا .. إنها ليست دينية معصومة وليست مدنية قائمة على أهواء البشر ، لكنها إسلامية ترتضى حكم الله وتجتهد فى شئون الدنيا ، تعتصم بالله وتمتلك ناصية المادة ، تقيم حدود الله وتعمر الأرض والحياة ..

إنها الحكومة الإسلامية وكفى .. !!

وإن الخطبة الأولى التى وجهها الخليفة الأول أبو بكر الصديق إلى الأمة عقب توليته توضح ما نريد .. لقد قال :

أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ..

الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ..

لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ..

أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم .. (١)

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٦ ص٣٠١ ط مكتبة المعارف.

المبحث الخامس

الحكم على الفرق الإسلامية

- الأصول والفروع
- الحكم بالتكفير على الفرق

الأصول والفروع

انقسم المسلمون إلى فرق متعددة في الأصول وفي الفروع ..

ونعني بالأصول الأمور المتصلة بالعقائد، ونعني بالفروع الأمور المتصلة بالعبادات والمعاملات .

وقد حكى الإمام الشهرستاني التفرقة بين الأصول والفروع فقال :

«وقال بعض المتكلمين : الأصول معرفة الباري تعالى بوحدانيته وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم، وبالجملة كل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول.

ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصوليا، ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعيا .

فالأصول هي موضوع علم الكلام والفروع هي موضوع علم الفقه .

وقال بعض العقلاء : كل ما هو معقول ويتوصل إليه بالنظر والاستدلال فهو من الأصول، وكل ما هو مظنون أو يتوصل إليه بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع»[1] .

---

(١) الملل والنحل — تحقيق محمد سيد كيلاني ج١ ص٤١ ط الحلبي.

وعلى هذا فالفرق الأصولية المتصلة بالعقائد مثل الجبرية والقدرية والسلف والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية إلخ ....

وفرق الفروع مثل الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة .

وهناك فرق تجمع في خلافها بين الأصول والفروع مثل الشيعة والسنة ، فبينهما خلاف عقدى يتعلق بالإمامة هل هى ركن من أركان الدين أو مصلحة من مصالح المسلمين ؟

وهل الإمامة بالنص والتعيين أو بالشورى والاختيار ؟

ولكل من السنة والشيعة مذاهب فقهية تتعلق بالعبادات والمعاملات .

ولا حرج فى الاختلاف حول الفروع فهو لا يمثل شقاقا فى الأمة طالما كان فى إطار ضوابط الاجتهاد بل إنه يعد من باب الرحمة ويسر التشريع .

أما اختلاف الأصول فهو اختلاف مذموم ، ورغم المذمة التى تلحق أصحابه إلا أنه لم يصل بين الفرق الإسلامية[1] إلى مرتبة أن يقال هذا كافر وذاك مؤمن .

---

(١) الفرق الغالية كأصحاب ابن سبأ والباب والبهاء ليست إسلامية لأن الخلاف معها يتعلق بأصل من أصول الدين وهو النبوة وختم الرسالة .

فالمسلمون رغم اختلافاتهم تجمعهم كلمة التوحيد «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» ويتحلقون حول الكعبة المشرفة ، وتخشع قلوبهم للقرآن الكريم ، ويلتزمون بأركان الإسلام من صلاة وزكاة وصيام وحج .

واختلافهم حول بعض مسائل العقيدة لا يخرج بهم عن هذه الأصول .

وعلى سبيل المثال : اختلف علماء الفرق فى مسألة الصفات الإلهية هل هى عين الذات أو غير الذات ، أو لا هو ولا غيره .

فذهب المعتزلة والفلاسفة إلى الأول ، وجمهور المتكلمين إلى الثانى ، والأشعرى إلى الثالث .

وقدم الشيخ الهروانى تحقيقاً لقول الفلاسفة بعينية الصفات بأن ذاته تعالى من حيث إنه مبدأ لانكشاف الأشياء عليه — علم ، ولما كان مبدأ الانكشاف على ذاته بذاته ، كان عالما بذاته .

وكذا الحال فى القدرة والإرادة وغيرها من الصفات ، قالوا : وهذه المرتبة أعلى من أن تكون الصفات مغايرة للذات ، فإنا مثلا نحتاج فى انكشاف الأشياء علينا إلى صفة مغايرة لنا ، قائمة بنا ، وهو تعالى لا يحتاج إليها ، بل بذاته تنكشف الأشياء عليه .

ولذلك قيل : محصول كلامهم نفى الصفات وإثبات نتائجها

وغاياتها ، وأما المعتزلة فظاهر كلامهم أنها عندهم من الاعتبارات العقلية التي لا وجود لها في الخارج .

والقول المعتمد أن مسألة زيادة الصفات وعدم زيادتها ليست من الأصول التي يتعلق بها تكفير أحد الطرفين ، ونقل الشيخ الدواني عن بعض الأصفياء أنه لا يرى بأساً في اعتقاد أحد طرفي النفي والإثبات في هذه المسألة(١) .

وساق الإمام الشهرستاني نماذج أخرى فقال :

المختلفان في مسألة الكلام ليسا يتواردان على معنى واحد بالنفي والإثبات .

فإن الذي قال : هو مخلوق ، أراد به أن الكلام هو الحروف والأصوات في اللسان ، والرقوم والكلمات في الكتابة ، قال : وهذا مخلوق .

والذي قال : ليس بمخلوق ، لم يرد به الحروف والرقوم ، وإنما أراد به معنى آخر فلم يتواردا بالتنازع في الخلق على معنى واحد .

---

(١) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين — تحقيق د. سليمان دنيا جـ ١ ص ٢٧٨

وكذلك فى مسألة الرؤية فإن النافى قال : الرؤية إنما هى اتصال شعاع بالمرئى ، وهو لا يجوز فى حق البـــارى تعالى ، والمثبت قال : الرؤية إدراك أو علم مخصوص ، ويجوز تعلقه بالبارى تعالى ، فلم يتوارد النفى والإثبات على معنى واحد ، إلا إذا رجع الكلام الى إثبات حقيقة الرؤية فيتفقان أولا على أنها ماهى؟ ثم يتكلمان نفيا وإثباتا ، وكذلك فى مسألة الكلام يرجعان إلى إثبات ماهية الكلام ثم يتكلمان نفيا وإثباتا ، وإلا فيمكن أن تصدق القضيتان »[1] .

---

(١) الملل والنحل ــ تحقيق محمد سيد كيلانى حـ ١ ص٢٠٢

الحكم بالتكفير على الفرق

وإذا كانت بعض الفرق تكفر مخالفيها فنحن لا نكفر هؤلاء المكفرين وإلا كنا مثلهم في الضلالة وإنما ننصحهم ونوضح لهم المنهج ونرجو لهم المغفرة والاستقامة .

ولقد قال الإمام الباجوري في شرحه على الجوهرة :

« ولم يكفروا (أى الخوارج) بتكفير مرتكب الذنوب ، مع أن من كفر مؤمنا كفر لأنهم قالوا ذلك بتأويل واجتهاد » .

وهناك حديث صحيح يقول فيه النبي ﷺ :

«إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما» .

وفى رواية :

أيما امرىء قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه » .

وفى رواية :

ومن دعا رجلا بالكفر أو قال : عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه » .

وفى توجيه هذه النصوص أوجه ذكرها الإمام النووى هى:

أحدها أنه محمول على المستحل لذلك وهذا يكفر ، فعلى هذا معنى « باء بها » أى بكلمة الكفر ، وكذا « حار عليه » وهو معنى «رجعت عليه » ، أى رجع عليه الكفر ، فباء وحار ورجع بمعنى واحد .

والوجه الثانى : معناه رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره .

والثالث : أنه محمول على الخوارج المكفرين المؤمنين ، وهذا الوجه نقله القاضى عياض رحمه الله عن الإمام مالك بن أنس . وهو ضعيف ، لأن المذهب الصحيح المختار الذى قاله الأكثرون والمحققون أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع .

والوجه الرابع : معناه أن ذلك يؤول به إلى الكفر ، وذلك أن المعاصى كما قالوا — بريد الكفر ، ويخاف على المكثر منها أن يكون عاقبة شؤمها المصير إلى الكفر ، ويؤيد هذا الوجه ما جاء فى رواية لأبى عوانة الاسفراينى فى كتابه المخرج على صحيح مسلم «فإن كان كما قال وإلا فقد باء بالكفر» وفى رواية «إذا قال لأخيه يا كافر وجب الكفر على أحدهما» .

الوجه الخامس : معناه فقد رجع عليه تكفيره ، فليس الراجع حقيقة الكفر بل التكفير لكونه جعل أخاه المؤمن كافرا فكأنه كفر نفسه ، إما لأنه كفر من هو مثله ، وإما لأنه كفر من لا يكفره

إلا كافر يعتقد بطلان دين الإسلام .. والله أعلم[1] .

وقد ساق الإمام أبو حامد الغزالى موقفه من قضية تكفير الفرق فقال :

المعتزلة والمشبهة والفرق كلها سوى الفلاسفة ، وهم الذين يصدقون ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ، ولا يشتغلون بالتعليل لمصلحة الكذب بل بالتأويل ولكنهم مخطئون فى التأويل — فهؤلاء أمرهم فى محل الاجتهاد .

والذى ينبغى أن يميل إليه المحصل الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصرحين بقول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » خطأ .

والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم ، وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقـــد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » .

ثم قال الغزالى : ودليل المنع من تكفيرهم أن الثابت عندنا بالنص تكفير المكذب للرسول ، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلا ، ولم يثبت لنا أن الخطأ فى التأويل موجب للتكفير ، فلابد من دليل

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٢ ص ٥٠

عليه ، وثبت أن العصمة مستفادة من قول « لا إله إلا الله » قطعا ، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع .. »[1] .

ولعل مما يتأيد به رأى الغزالى هنا حديث أسامة بن زيد ، ففى صحيح مسلم بسنده عن أسامة قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة ، فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ ذلك النبى ﷺ فقال لى : يا أسامة أقتلته بعدما قال « لا إله إلا الله » ؟ قلت يا رسول الله إنما كان متعوذا ، فقال : أقتلته بعدما قال « لا إله إلا الله » ؟ فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » .

لقد استشعر أسامة عظم الذنب حتى تمنى أن يكون إسلامه بعد هذه الحادثة المؤلمة وليس قبلها لأن الإسلام يجب ما قبله ويمحو ما سلف من الذنوب . .

وجاءت روايات تضيف مزيدا من الحوار بين الرسول الكريم وبين أسامة .

ففى رواية : قال الرسول ﷺ : أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟!

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٢٦ ط صبيح سنة ١٩٦٢

قال أسامة : يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح ..

قال الرسول ﷺ : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟!

فما زال يكررها .

وفى رواية أخرى :

قال الرسول الكريم : لم قتلته ؟

قال أسامة : يا رسول الله أوجع فى المسلمين وقتل فلانا وفلانا ، وسمى له نفرا .. وإنى حملت عليه فلما رأى السيف قال لا إله إلا الله .

قال الرسول ﷺ : أقتلته ؟ !

قال أسامة : نعم .

قال الرسول ﷺ ، فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ !

قال أسامة : يا رسول الله استغفر لى .

قال الرسول ﷺ : وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ !

فجعل لا يزيده على أن يقول كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ !

المبحث السادس

حديث افتراق الأمة

— نصوص الحديث وتعداد الفرق
— شرح العلماء للحديث
— تعقيب وتعليق
• خطأ الحصر
• المراد بالأمة
• مفهوم الفرقة الناجية
• المراد من قوله «كلها في النار» ..

نصوص الحديث وتعداد الفرق

يتردد كثيراً حديث مشهور على ألسنة العلماء حول الفرق الإسلامية، ويتخذه البعض ذريعة للتكفير . .

وقد حظى هذا الحديث بأبحاث كثيرة واجتهادات متعددة وذكره علماء الفرق فى مقدمة كتبهم، ونسوق هنا نماذج لأقوال الباحثين :

١ — الإمام البغدادى ت — ٤٢٩ هـ :

بدأ الإمام عبد القاهر البغدادى كتابه « الفرق بين الفرق » ببيان الحديث المأثور فى افتراق الأمة، وساق مجموعة روايات منها :

• رواية أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة . وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » .

• رواية عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل، تفرق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، تزيد عليهم ملة »

كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : يا رسول الله من الملة الواحدة التى تنقلب[1] ؟

قال: ما أنا عليه وأصحابى » .

« رواية أنس عن النبى ﷺ قال : إن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة » .

ثم علق الإمام البغدادى قائلا[2] :

وقد علم كل ذى عقل من أصحاب المقالات المنسوبة إلى الإسلام أن النبى عليه السلام لم يرد بالفرق المذمومة التى عدها من أهل النار — فرق الفقهاء الذين اختلفوا فى فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين ، لأن المسلمين فيما اختلفوا فيه من فروع الحلال والحرام على قولين :

أحدهما : قول من يرى تصويب المجتهدين كلهم فى فروع الفقه ، وفرق الفقه كلها عندهم مصيبون .

والثانى : قول من يرى فى كل فرع تصويب واحد من المختلفين فيه وتخطئة الباقين من غير تضليل منه المخطىء فيه .

---

(١) أى تنقلب راجعة عن النار .

(١) الفرق بين الفرق ص٦ ط دار الآفاق الجديدة — بيروت .

وإنما فصل النبي عليه السلام بذكر الفرق المذمومة — فرق أصحاب الأهواء الضالة الذين خالفوا الفرقة الناجية في أبواب العدل والتوحيد أو في الوعد والوعيد أو في بابي القدر والاستطاعة أو في تقدير الخير والشر ، أو في باب الهداية والضلالة ، أو في باب الإرادة والمشيئة أو في باب الرؤية والإدراك . أو في باب صفات الله عز وجل وأسمائه وأوصافه ، أو في باب من أبواب التعديل والتجويز أو في باب من أبواب النبوة وشروطها ونحوها من الأبواب التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة من فريقي الرأي والحديث على أصل واحد خالفهم فيها أهل الأهواء الضالة من القدرية والخوارج والروافض والنجارية والجهمية والمجسمة والمشبهة ومن جرى مجراهم من فرق الضلال . .

ثم عد الإمام البغدادي الفرق الضالة وحاول الإلتزام بالعدد الوارد ، وحين أحس بتكاثر عددها عن اثنتين وسبعين فرقة أخذ يخرج بعض الفرق عن دائرة الإسلام مثل الباطنية فقال[1] :

وليست الباطنية من فرق ملة الإسلام بل هي من فرق المجوس على ما نبينه بعد هذا وظهروا في أيام محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر بخراسان ...

---

(١) المرجع السابق ص ١٦

وحين تحدث عن الروافض قال[1] :

فأما غلاتهم الذين قالوا بإلهية الأئمة وأباحوا محرمات الشريعة وأسقطوا وجوب فرائض الشريعة كالبيانية والمغيرية والجناحية والمنصورية والخطابية والحلولية ومن جرى مجراهم فلسوا من فرق الإسلام وإن كانوا منتسبين إليه .

وحين تحدث عن الخوارج قال[2] :

واليزيدية منهم أتباع ابن يزيد بن أنيس ليست من فرق الإسلام لقولها بأن شريعة الإسلام تنسخ فى آخر الزمن بنبى يبعث من العجم ، وكذلك جملة العجاردة فرقة يقال لها الميمونية ليست من فرق الإسلام لأنها أباحت نكاح بنات البنات وبنات البنين كما أباحته المجوس ...

وما زال إحساسه بكثرة الفرق مسيطرا عليه حتى إنه دمج بعض الفرق فى بعض فقال[3] :

وأما النجارية فإنها اليوم بالرى أكثر من عشر فرق ، ومرجعها فى الأصل إلى ثلاث فرق برغوثية وزعفرانية ومستدركة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧
(٢) المرجع السابق ص ١٨
(٣) المرجع السابق ص ١٩

٢ — الإمام الشهرستانى ت ٥٤٨ هـ :

ألف الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى كتابه «الملل والنحل»، وذكر فى مقدمته الأولى عن بيان تقسيم أهل العالم مايتعلق بالفرق فقال[1]:

فأهل الأهواء ليست تنضبط مقالاتهم فى عدد معلوم، وأهل الديانات قد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها، فافترقت المجوس على سبعين فرقة، واليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة، والناجية أبداً من الفرق واحدة، إذ الحق من القضيتين المتقابلتين فى واحدة.

ولا يجوز أن يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائط التقابل إلا وأن تقتسما الصدق والكذب، فيكون الحق فى إحداهما دون الأخرى. ومن المحال الحكم على المتخاصمين المتضادين فى أصول المعقولات بأنهما محقان صادقان.

وإذا كان الحق فى كل مسألة عقلية واحداً، فالحق فى جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة..

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٣ — تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط الحلبى .

وإنما عرفنا هذا بالسمع ، وعنه أخبر التنزيل فى قوله عز وجل «ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»[١] ، وأخبر النبى عليه الصلاة والسلام «ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة والباقون هلكى ، قيل ومن الناجية ؟ قال : أهل السنة والجماعة ، قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابى»..

وقال عليه الصلاة والسلام «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة» .

وقال عليه الصلاة والسلام «لا تجتمع أمتى على ضلالة»...

وأرجع الإمام الشهرستانى أصول الفرق إلى أربع هى :

القدرية — الصفاتية — الخوارج — الشيعة .

وجعل كل أصل ينشعب إلى فرق ، وأوصلها إلى ثلاث وسبعين فرقة ثم قال[٢] :

وقد نجرت الفرق الإسلامية وما بقيت إلا فرقة الباطنية ، وقد أوردهم أصحاب التصانيف فى كتب المقالات إما خارجة عن الفرق وإما داخلة فيها ، وبالجملة هم قوم يخالفون الاثنين والسبعين فرقة .

---

(١) سورة الأعراف — الآية ١٨١

(٢) الملل والنحل ص ١٩٠

٣ — الإمام ابن الجوزى ت ٥٩٧ هـ :

ألف الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى كتابه « تلبيس إبليس »[١] ، وبدأه بباب الأمر بلزوم السنة والجماعة ، وذكر بعض الأحاديث في ذلك منها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب بالجابية فقال : قام فينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : من أراد منكم بحبوبة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد » .

ثم ساق الإمام ابن الجوزى مجموعة روايات حول افتراق الأمة منها :

● رواية ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليأتين على أمتى كما أتى على بنى إسرائيل ، حذو النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتى من يصنع ذلك ، وإن بنى إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : من هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٥ ط إدارة الطباعة المنيرية ؛

« رواية معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال: ألا إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قام فينا فقال: ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى[1] بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ».

وحاول الإمام ابن الجوزي حصر هذه الفرق بجعل أصولها ستة وهي:

الحرورية — القدرية — الجهمية — المرجئة — الرافضة — الجبرية.

ثم ادعى أن كل أصل ينقسم إلى اثنى عشرة فرقة فيكون المجموع اثنتين وسبعين فرقة كلها هالكة إلا أهل السنة والجماعة

---

(١) بحذف إحدى التاءين وأصلها تتجارى أي تدخل وتسرى تلك الأهواء كما يسرى داء الكلب — بفتح الكاف واللام — الذي يعرض للإنسان من عض الكلب.

شرح العلماء للحديث

فى كتاب : «عون المعبود شرح سنن أبى داود» قال العلامة أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادى[٢] .

« افترقت اليهود .. إلخ » هذا من معجزاته ﷺ لأنه أخبر عن غيب وقع .

قال العلقمى : قال شيخنا : ألف الإمام أبو منصور عبد القاهر ابن طاهر التميمى فى شرح هـذا الحديث كتابا قال فيه : قد علم أصحاب المقالات أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد بالفرق المذمومة المختلفين فى فروع الفقه من أبواب الحلال والحرام ، وإنما قصد بالذم من خالف أهل الحق فى أصول التوحيد ، وفى تقدير الخير والشر ، وفى شروط النبوة والرسالة ، وفى موالاة الصحابة وما جرى مجرى هذه الأبواب ، لأن المختلفين فيها قد كفر بعضهم بعضا بخلاف النوع الأول فإنهم اختلفوا فيه من غير تكفير ولا تفسيق للمخالف فيه .

فيرجع تأويل الحديث فى افتراق الأمة إلى هـذا النوع من

---

(١) جـ ١٢ ص ٣٤٠ تحقيق عبد الرحمن عثمان ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

الاختلاف وقد حدث فى آخر أيام الصحابة خلاف القدرية من معبد الجهنى وأتباعه، ثم حدث الخلاف بعد ذلك شيئا فشيئا إلى أن تكاملت الفرق الضالة اثنتين وسبعين فرقة ، والثالثة والسبعون هم أهل السنة والجماعة وهى الفرقة الناجية ... » .

وفى شرح العقائد العضدية لجلال الدين الدوانى قال[1] :

قال النبى ﷺ [ستفترق أمتى] أى أمة الإجابة وهم الذين آمنوا به ﷺ ، وهو الظاهر فإن أكثر ما ورد فى الحديث على هذا الأسلوب أريد به أهل القبلة .

قال بعض شراح الحديث : ولو حمل على أمة الدعوة لكان له وجه .

وأنت تعلم بعده جدا فإن فرق الكفر أكثر من هذا العدد بكثير .

[ثلاثا وسبعين فرقة] السين إما للتأكيد فإن ما هو متحقق الوقوع قريب كما قيل فى قوله تعالى « ولسوف يعطيك ربك فترضى » أو بمعناه الحقيقى إشارة إلى أن الاختلاف متراخ عن حياته ﷺ :

---

(1) الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين — ج ١ ص ٤ تحقيق د. سليمان دنيا ط الحلبى .

وما يتوهم من أنه :

إن حمل على أصول المذاهب فهى أقل من هذا العدد .

وإن حمل على ما يشمل الفروع فهى أكثر منه .

توهم فاسد لا مستند له ، لجواز كون الأصول التى بينها مخالفة معتد بها ، بهذا العدد .

وقد يقال : لعلهم فى بعض من الأوقات بلغوا هذا العدد ، وإن زادوا أو نقصوا فى أكثر الأوقات .

[كلها فى النار] من حيث الاعتقاد ، فلا يرد أنه : إن أريد الخلود فيها فهو خلاف الإجماع فإن المؤمنين لا يخلدون فيها .

وإن أريد مجرد الدخول فهو مشترك بين الفرق ، إذ ما من فرقة إلا وبعضهم عصاة . والقول بأن معصية الفرقة الناجية مطلقا مغفورة بعيد جدا .

ولا يبعد أن يكون المراد استقلال مكثهم فى النار بالنسبة إلى سائر الفرق ترغيبا فى تصحيح العقائد .

[إلا واحدة ، قيل ومن هم] أى الفرقة الناجية .

[قال : الذين هم على ما أنا عليه وأصحابى] رواه الترمذى .

والأصحاب جمع صحب، جمع صاحب، أو جمع صحب مخفف صحب(١) بمعنى صاحب، وهو من رأى النبي ﷺ مؤمنا به سواء كان في حال البلوغ أو قبله أو بعده، طالت صحبته أولا .

[وهذه] إشارة إلى مقاصد هذه الرسالة [عقائد] المراد بالعقائد ما يتعلق الغرض بنفس اعتقاده من غير تعلق بكيفية العمل ككونه تعالى حيا قادرا إلى غير ذلك من مباحث الذات والصفات .

وتسمى تلك الأحكام أصولا وعقائد واعتقادية .

يقابلها الأحكام المتعلقة بكيفية العمل كوجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم وتسمى شرائع وفروعا وأحكاما ظاهرة .

[الفرقة الناجية وهم الأشاعرة] التابعون في الأصول الشيخ أبي الحسن الأشعري، وهو منسوب إلى « أشعر » وهي قبيلة من اليمن، وقيل إلى جده « أبي موسى الأشعري » رضي الله عنه .

فإن قلت : كيف حكم بأن الفرقة الناجية هم الأشاعرة وكل فرقة تزعم أنها الناجية ؟

---

(١) صحب الأولى بفتح فكسر، والثانية بفتح فكسر مشدد

قلت : سياق الحديث مشعر بأنهم المتقيدون لما روى عن النبي ﷺ وأصحابه ، وذلك إنما ينطبق على الأشاعرة ، فإنهم يتمسكون فى عقائدهم بالأحاديث الصحيحة المروية عنه ﷺ وعن أصحابه رضى الله تعالى عنهم ، ولا يتجاوزون عن ظواهرها إلا لضرورة ، ولا يسترسلون مع عقولهم كالمعتزلة ومن يحذو حذوهم ، ولا مع النقل عن غيرهم كالشيعة المتبعين لما روى عن أئمتهم لاعتقادهم العصمة فيهم .

* * *

تعقب وتعليق

١ — خطأ الحصر :

إن العلماء الذين اهتموا بحصر الفرق وبيان عددها — وقفوا عند زمانهم ونسوا أن الليالى حبلى بالمذاهب والآراء والفرق والمعتقدات ، وأن الاجتهادات لاتتوقف .

فيا ترى ماذا هم قائلون بعد ألف عام من تعدادهم للفرق وحصرها ؟ !

وماذا هم قائلون بعد ألفين أو ثلاثة آلاف ؟ !

إن العدد لامفهوم له وليس مرادا به الحصر ، وهذا يجرى كثيرا فى أخبار القرآن وقصصه ، ولنقرأ قوله تعالى :

«ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم»(١) .

فالأبحر سواء كانت سبعة أو سبعين أو سبعمائة لن تنفد كلمات الله .

---

(١) سورة لقمان — الآية ٢٧

ولنقرأ قوله تعالى :

«استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدى القوم الفاسقين»[١] .

فالاستغفار سبعين مرة أو أقل أو أكثر لن يغير حكم الله فى المنافقين .

ومن هنا فالاستمساك بالعدد ثلاثا وسبعين فرقة من الفهم القاصر للحديث الشريف .

وقد جهد علماء الفرق أنفسهم فى الوقوف عند هذا العدد فقاموا بعمليات التحليل والتركيب والقبض والبسط فى حصر الفرق بما لا طائل من ورائه ، فالبغدادى جعل الخوارج عشرين فرقة ، وابن الجوزى جعلهم اثنتى عشرة فرقة .

---

(١) سورة التوبة — الآية ٨٠

٢ — المراد بالأمة :

إن تفسير الأمة فى قوله «أمتى» بأنها الأمة الإسلامية ليس من اليقين فى شىء . فإن أمة الرسول هى أمة الدعوة فى المقام الأول ولا يراد بها أمة الإجابة إلا بقرائن .

وقد سجل القرآن أن كل نبى بعث إلى قومه وخاطبهم بإضافتهم إلى نفسه ، فنادى صالح وهود قومهما بهذا النداء «ياقوم» ، فقال تعالى «وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون»(١) .

وقال جل شأنه «وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم»(٢) .

ونادى موسى قومه بهذا النداء أيضا وكذلك نوح . . قال تعالى «وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم»(٣) .

وقال جل شأنه «إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك

---

(١) سورة الأعراف — الآية ٦٥
(٢) سورة الأعراف — الآية ٧٣
(٣) الصف — الآية ٥

من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال ياقوم إنى لكم نذير مبين»[١] .

فالقوم هنا بالتأكيد هم قوم الدعوة، الذين جاءهم النبى وبلغهم دعوة الله وناشدهم اتباعها فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

وجاء لفظ الأمة فى القرآن بمعنى أمة الدعوة فقال سبحانه ، «ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون»[٢] .

فهذه الآية صريحة فى استخدام أمة الرسول بمعنى أمة الدعوة.

وعلى هذا فمحاولة حصر عدد الفرق فى دائرة المسلمين ظن ليس بيقين ، ولو فسرنا الأمة فى الحديث بأنها أمة الدعوة لأرحنا واسترحنا ، فالمسلمون جميعا أمة واحدة فى مواجهة أمم الكفر المنتشرة فى العالم والتى تتجدد تحت أسماء ومذاهب وفرق فى كل وقت وحين.

وقد حكم الله بأن المسلمين أمة واحدة فقال «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون»[٣] .

فالمسلمون — رغم اختلافهم — ملة واحدة فى مواجهة ملل

---

(١) نوح — الآية ١ ، ٢
(٢) سورة المؤمنون — الآية ٤٤
(٣) سورة الأنبياء — الآية ٩٢

فاسدة ، ومذهب واحد فى مواجهة مذاهب باطلة ، وفرقة واحدة فى مواجهة فرق ضالة .

وما قاله جلال الدين الدوانى من بعد حمل الأمة علـى أمة الدعوة ليس بشىء ، وما علل به رأيه أكثر غرابة، فالقول بأن فرق الكفر أكثر من العدد الوارد فى الحديث ، هو قول مرفوض لأن العدد لامفهوم له سواء قلنا إنها أمة الإجابة أو أمة الدعوة .

٣ — مفهوم الفرقة الناجية :

إن قوله ﷺ فى وصف الفرقة الناجية "ما أنا عليه وأصحابى" قضية متفق عليها حتى ولو لم ترد نصا ، فمقتضى الإيمان بالرسالة والرسول أن تكون الفرقة الناجية هى أمة الإسلام ، وهم أهل السنة والجماعة بالمفهوم الشرعى .

وكل الفرق الإسلامية تدعى لنفسها أنها أهل السنة والجماعة .

وقد نقل جلال الدين الدوانى أن نصير الدين الطوسى عين الفرقة الناجية بأنها الإمامية من الشيعة(١) .

وعينها كثير من علماء الفرق بأنها الأشاعرة .

---

(١) الشيخ محمد عبده بين المتكلمين والفـلاسفة حـ١ ص٢٩ تحقيق د. سليمان دنيا ط الحلبى .

وقال الإمام ابن تيمية : إن احق الناس بأن تكون هى الفرقة الناجية اهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله واحواله، وأعظمهم تمييزا بين صحيحها وسقيمها(١).

واليوم يتنازعها السلفيون وأنصار السنة والعاملون بالجمعية الشرعية والجماعات الإسلامية بفروعها المتعددة . .

إننا على يقين بأن الحق لا تحصره فرقة بعينها ، والعصمة لا تعرف لإمام من الأئمة ، وكل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب الروضة الشريفة . .

فقد يكون الحق فى مسائل لدى المعتزلة أو الأشاعرة أو الشيعة . .

وقد تكون هناك آراء نرفضها لدى هؤلاء جميعا . وقد يدور الخلاف حول قضايا ليست من أصول الدين ولا يترتب عليها إيمان أو كفر .

ومن هنا فإنى أنازع الشهرستانى فى قوله :

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص٣٤٧

إذا كان الحق فى مسألة عقلية واحدا فالحق فى جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة »

فإذا كان المقصود بالفرقة الواحدة الدين الواحد يعنى الإسلام فهذا صحيح وإذا كان المقصود فرقة معينة داخل فرقة المسلمين فهذا غير صحيح ، فليست كل آراء فرقة بعينها عقيدة يجب التسليم بها أو يجب رفضها، فالتسليم لكل الآراء أو رفض كل الآراء لدى فرقة خاصة ليس مما يلزم . .

قال ابن تيمية[١] :

ومما ينبغى أيضا أن يعرف أن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين فى أصول الدين والكلام : على درجات ، منهم من يكون قد خالف السنة فى أصول عظيمة ومنهم من يكون إنما خالف السنة فى أمور دقيقة .

ومن يكون قد رد على غيره من الطوائف الذين هم أبعد عن السنة منه ، فيكون محمودا فيما رده من الباطل وقاله من الحق ، لكن يكون قد جاوز العدل فى رده بحيث جحد بعض الحق وقال بعض الباطل ، فيكون قد رد بدعة كبيرة ببدعة أخف منها ،

---

(١) مجموع الفتاوى جـ٣ ص٣٤٨

ورد باطلا بباطل أخف منه ، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة .

ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولا يفارقون به جماعة المسلمين ، يوالون عليه ويعادون كان من نوع الخطأ ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم فى مثل ذلك .

ولهذا وقع فى مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها ، لهم مقالات قالوها باجتهاد وهى تخالف ما ثبت فى الكتاب والسنة ... »

٤ — المراد من قوله « كلها فى النار » :

إن قوله ﷺ « كلها فى النار إلا واحدة » لا يعنى كفر باقى الفرق إن حملنا الأمة على أمة الإجابة ، ودخول المؤمن النار لا يكون على وجه الخلود الأبدى ، وقد يستحق المؤمن النار ولكن يعفو الله عنه ، فمغفرة ما دون الشرك فى إطار المشيئة لقوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا »[١] .

---

(١) سورة النساء — الآية ١١٦

والفرق الإسلامية تشترك فى أصول الدين وتتوحد عقيدتها فى جوهر الإيمان ، وللإمام ابن تيمية كلام طيب فى هذا المقام فقد حكى أن السلف والأئمة لم يتنازعوا فى عدم تكفير المرجئة والشيعة المفضلة ونحو ذلك ، وقال : ولم تختلف نصوص أحمد فى أنه لا يكفر هؤلاء وإن كان من أصحابه من حكى فى تكفير جميع أهل البدع — من هؤلاء وغيرهم — خلافا عنه أوفى مذهبه ، حتى أطلق بعضهم تخليد هؤلاء وغيرهم ، وهذا غلط على مذهبه وعلى الشريعة .

ثم قال : ومنهم من لم يكفر أحدا من هؤلاء إلحاقاً لأهل البدع بأهل المعاصى . قالوا فكما أن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدا بذنب فكذلك لا يكفرون أحدا ببدعة ... » .

ثم ذكر ابن تيمية فصل الخطاب بالتنبيه على أصلين :

أحدهما : أن يعلم أن الكافر فى نفس الأمر من أهل الصلاة لا يكون إلا منافقا فإن الله منذ بعث محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن وهاجر إلى المدينة صار الناس ثلاثة أصناف : مؤمن به ، وكافر به مظهر الكفر ، ومنافق مستخف بالكفر .. ولهذا ذكر الله هذه الأصناف الثلاثة فى أول سورة البقرة ، ذكر أربع آيات فى نعت المؤمنين ، وآيتين فى الكفار ، وبضع عشرة آية فى المنافقين .

وبناء على هذا الأصل قال ابن تيمية :

فأهل البدع فيهم المنافق الزنديق فهذا كافر ، ويكثر مثل هذا فى الرافضة والجهمية فإن رؤساءهم كانوا منافقين زنادقة ، وأول من ابتدع الرفض كان منافقا ، وكذلك التجهم فإن أصله زندقة ونفاق .

وهذا المعنى الذى يؤكده ابن تيمية يشير إلى أن أعداء الإسلام قد يتظاهرون بالصلاة وغيرها من العبادات ليثيروا الفتنة ويمزقوا الأمة كما فعل المنافقون على عهد رسول الله ﷺ ..

ويفرق ابن تيمية بين هؤلاء الزعماء المأجورين المنافقين وبين أتباعهم من عامة المسلمين فيقول :

ومن أهل البدع من يكون فيه إيمان باطنا وظاهرا لكن فيه جهل وظلم حتى أخطأ ما أخطأ من السنة ، فهذا ليس بكافر ولا منافق ، ثم قد يكون فيه عدوان وظلم يكون به فاسقا أو عاصيا ، وقد يكون مخطئا متأولا مغفورا له خطأه ، وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه .

الأصل الثانى :

أن المقالة قد تكون كفرا ، كجحد وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتحليل الزنا والخمر والميسر ونكاح ذوات

المحارم ، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب ، وهذا لا يكفر به جاحده كمن هو حديث عهد بالإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه شرائع الإسلام ..

فهذا لا يحكم بكفره بجحد شيء مما أنزل على الرسول ، إذا لم يعلم أنه انزل على الرسول . .

ومقالات الجهمية هي من هذا النوع فإنها جحد لما هو الرب تعالى عليه ولما أنزل الله على رسوله .

ثم علل الإمام ابن تيمية عدم تكفيره لأهل البدع بأمور ثلاثة هي :

١ — التأويل فهم متأولون وليسوا رادين لما أنزل .

٢ — وأن أصل الإيمان الإقرار بالله وأن أصل الكفر الإنكار لله وهم ليسوا منكرين .

٣ — وأن لهم دلائل وشبهات قد تخفى على كثير من المؤمنين .

وهذه هي عبارته بالنص :

وتغلظ مقالاتهم من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن النصوص المخالفة لقولهم في الكتاب والسنة والإجماع كثيرة جدا مشهورة وإنما يردونها بالتحريف ..

الثانى : أن حقيقة قولهم تعطيل الصانع ، وإن كان منهم من لا يعلم أن قولهم مستلزم تعطيل الصانع ، فكما أن أصل الإيمان الإقرار بالله فأصل الكفر الإنكار لله .

الثالث : أنهم يخالفون ما اتفقت عليه الملل كلها وأهل الفطر السليمة كلها لكن مع هذا قد يخفى كثير من مقالاتهم على كثير من أهل الإيمان حتى يظن أن الحق معهم لما يوردونه من الشبهات .

ويكون أولئك المؤمنون مؤمنين بالله ورسوله باطنا وظاهرا ، وإنما التبس عليهم واشتبه هذا كما التبس على غيرهم من أصناف المبتدعة ، فهؤلاء ليسوا كفاراً قطعاً ، بل قد يكون منهم الفاسق والعاصى ، وقد يكون منهم المخطىء المغفور له ، وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه .

واستدل ابن تيمية على ذلك فقال :

وأصل قول أهـــل السنة الذى فارقوا به الخوارج والجهمية والمعتزلة والمرجئة أن الإيمان يتفاضل ويتبعض ، كما قال النبى — صلى الله عليه وسلم — «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » وحينئذ فتتفاضل ولاية الله وتتبعض بحسب ذلك[1] .

---

(١) راجع مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٣٤٥ : ٣٥٨

• — ذكر الدكتور عبد الحليم محمود رأيا وجيها فقال(١) :

ولكن مما يدعو إلى الارتياح ويثلج الصدور أن الشعرانى فى ميزانه قد روى من حديث ابن النجار ، وصححه الحاكم بلفظ غريب وهو :

« ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة ، كلها فى الجنـــة إلا واحدة » .

وفى رواية عن الديلمى « الهالك منها واحدة » .

وفى هامش الميزان عن أنس عن النبى ﷺ بلفظ :

تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة كلها فى الجنة إلا الزنادقة » .

وما فى هامش الميزان هذا مذكور فى تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر . ولفظه :

« تفرق على بضع وسبعين فرقة ، كلها فى الجنة إلا واحدة ، وهى الزنادقة » .. أسنده عن أنس .

---

(١) التفكير الفلسفى فى الإسلام جـ ١ ص ١٠٠ — ط مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٨

وقال صاحب كشف الخفاء : ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية الثانية ولو مآلا فتأمل .

٦ — وأخيرا نذكر رأى الإمام ابن حزم ، قال[1] :

ذكروا حديثاً عن رسول الله ﷺ — أن القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة ، وحديثاً آخر « تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة فهي في الجنة » .

قال أبو محمد : هذان حديثان لا يصحان أصلا من طريق الإسناد ، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد . فكيف من لا يقول به ؟!!

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ ٣ ص ٢٤٧ — طبعة دار الفكر .

المبحث السابع

موالاة الكافرين

- آيات النهي عن الموالاة
- مفهوم الموالاة
- البر بأهل الذمة

آيات النهى عن موالاة الكافرين

هناك آيات قرآنية تحرم موالاة الكافرين ، وتعرض القضية بأساليب بيانية متعددة ، تنتهى كلها إلى رفض هذه الموالاة واجتنابها، ويحاول بعض الناس فهم هذا الحكم على أنه قطع لكل علاقة مع غير المسلمين ، ومنع لكل تعامل معهم ، وإعلان للعداوة والبغضاء .

ونسوق بعض هذه الآيات ونبين المراد منها :

١ — قال الله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منها تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير »[١] .

فالنهى هنا صريح ومباشر ، ويتأكد بسلب الإيمان عمن يقدم على موالاة الكافرين، وتستثنى الآية الكريمة حالة الغلبة للكافرين والضعف للمؤمنين فتبيح التقية والمداراة بالظاهر لا بالباطن ، وباللسان لا بالقلب حتى يأمن المسلم على دمه وماله وعرضه .

٢ — قال الله تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً »[٢] .

---

(١) سورة آل عمران — الآية ٢٨

(٢) سورة النساء — الآية ١٣٨ ، ١٣٩

تستخدم الآية هنا أسلوب الاستهزاء فى قوله « بشر » وتصفهم بالنفاق وتتوعدهم بالعذاب الأليم ، إن هؤلاء يطلبون عزة موهومة ويسعون وراء آمال معسولة حين يوالون الكافرين ويظاهرونهم، مع أن الحقيقة الغائبة عن هؤلاء هى أن العزة كلها لله تعالى ، وهو سبحانه يمنحها عباده المؤمنين ، فإن العاقبة للتقوى ، وإن النصر لرسل الله ودعاة الحق فى الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

٣ — قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ، إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا »(١) .

يأتى النهى هنا صريحا مسبوقا بنداء التشريف حتى يستحث المؤمنين الصادقين على الالتزام الكامل لحدود الله ، ثم تؤكد الآية أن موالاة الكافرين حجة كافية لإنزال بأس الله وعقابه على هؤلاء المنافقين .

٤ — قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى

---

(١) سورة النساء — ١٤٤ : ١٤٥

بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين»(١) .

يأتى النهى هنا أيضا صريحا مسبوقا بنداء التشريف المؤمنين، ومحددا لبعض طوائف الكفر الذين يكيدون للإسلام وهم اليهود والنصارى ، الذين يعاندون المؤمنين ويتربصون بهم الدوائر ، وتؤكد الآية الكريمة أن موالاة هؤلاء الأعداء تخرج المسلم عن دائرة إسلامه وتهوى به إلى مشاركتهم المآثم ، ومشابهتهم فى الكفر واجتماعهم على الظلم . . ولن يقرر الله أعين هؤلاء الكافرين ومواليهم ، فستكون عاقبة أمرهم خسرا ، ولات ساعة مندم .

٥ — قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين»(٢) .

تبدأ الآية بالنداء الذى يعقبه النهى معللا بمواقف هؤلاء الكافرين الذين يستهزءون بشعائر الدين ويسخرون من المؤمنين .

٦ — قال الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق،

---

(١) سورة المائدة — ٥١ : ٥٢

(٢) سورة المائدة — ٥٧

يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل »(١).

هذه الآية الكريمة هى مفتتح سورة الممتحنة، وتتجلى فيها الحقيقة كاملة وهى أن هؤلاء الكفار يجاهرون بعداوة المؤمنين ويبسطون أيديهم وألسنتهم بالسوء لكل ما هو حق وفضيلة، فمن يقدم على موالاة هؤلاء فقد انحرف عن سبيل المؤمنين وخرج عن دائرة الإيمان.

---

(١) سورة الممتحنة — (١)

مفهوم الموالاة

موالاة الكافرين هي إفشاء لأسرار المؤمنين، واستعداء لحزب الشيطان على حزب الله، ومناصحة لأعداء الأمة، واختراق لصفوف المجاهدين.

إنها خيانة للعقيدة، وجناية على أخوة الإيمان، وجبن في مواجهة الأعداء، ونفاق يثبط العزائم ويدفع إلى الخور ويسوق إلى الهزيمة.

والآيات السابقة واضحة الدلالة على هذا المعنى تمام الوضوح، ولو رجعنا إلى أسباب النزول التي يستعان بها على فهم الآيات القرآنية لوجدناها تتطابق مع هذا المعنى كل التطابق.

ويسوق العلامة الواحدي حول قوله تعالى «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» ما يلي[1].

قال ابن عباس: كان الحجاج بن عمرو، وكهمس بن أبي

---

(١) أسباب النزول للعلامة أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ص٧٢ ط مكتبة المتنبي بالقاهرة.

الحقيق ، وقيس بن زيد — وهؤلاء كانوا من اليهود — يباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال الكلبي : نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين يأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم .

وقال جبير عن الضحاك عن ابن عباس : نزلت فى عبادة بن الصامت الأنصارى وكان بدريا نقيبا ، وكان له حلفاء من اليهود فلما خرج النبى ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة : يا نبى الله إن معى خمسمائة رجل من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معى فاستظهر بهم على العدو ، فأنزل الله تعالى «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ...»

فواضح من هذه الأسباب للنزول أن الموالاة كانت فتنة فى الدين وقام بها المنافقون وأرادوا بها هزيمة المسلمين ، ولم يكن من المنطق الاستعانة باليهود يوم الأحزاب وهم الذين ظاهروا المشركين وتحالفوا معهم ضد المسلمين فى المدينة .

وإذا اتخذنا نموذجا آخر وليكن سبب النزول لصدر سورة الممتحنة ، لقد كان الرسول ﷺ يجهز لفتح مكة بعد ما نقضت قريش عهدها الذى قطعته على نفسها بصلح الحديبية ، وأراد الرسول الكريم أن يظل الأمر سرا حتى تتحقق المفاجأة العسكرية ولكن أحد الصحابة وهو حاطب بن أبى بلتعة كتب خطابا إلى قريش يعلمهم فيه بخبر رسول الله ويكشف لهم الخطة العسكرية ويدعوهم إلى الحيطة والحذر .

ونزل الوحى على رسول الله ﷺ بتفاصيل الموقف كله ويبعث الرسول من يحضر الخطاب قبل أن يصل إلى قريش ، ويقف حاطب يدافع عن نفسه : يارسول الله لا تعجل على ، إنى كنت امرءا ملصقا فى قريش ولم أكن من نفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها قراباتهم ، ولم يكن لى بمكة قرابة فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يدا .

والله ما فعلته شاكا فى دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وكتابى لا يغنى عنهم شيئا .
فصدقه الرسول وعذره ، وقام عمر بن الخطاب وقال :

دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

فقال الرسول ﷺ : « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم » .

لقد قدر الرسول للرجل سابق جهاده ، وعذره في خطأ حساباته ، ولكن تظل القضية هي هي ، فالموالاة للكافرين هي الرضا بكفرهم والنصرة لهم .

البر بأهل الذمة

موالاة الكافرين بهذا المعنى السابق تختلف اختلافا كبيرا عن البر بأهل الذمة والتعاون مع كل من ألقى إلينا السلم ولم يظاهر علينا أحدا .

فإن شواهد القرآن ووقائع السيرة النبوية تؤكد سماحة الإسلام والمسلمين ، وتؤكد التعاون المشترك لمصلحة الأمن العام ، قال الله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »[١] .

لقد حددت هاتان الآيتان القضية تحديدا تاما ، فالبر للمسالمين والنهى عن الموالاة للأعداء المحاربين .

وكلتا الآيتين من سورة الممتحنة التى بدأت بداية حاسمة تنهى عن موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين .

---

(١) سورة الممتحنة — ٨ : ٩

وإن سورة المائدة التى تكرر فيها النهى عن موالاة الكافرين المحاربين قد أباحت الموائد المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب المسالمين، كما أباحت التزوج من نسائهم، فقال تعالى «اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان»(١).

ونلاحظ أن الآية الكريمة جعلت طعام أهل الكتاب من الطيبات التى أحلها الله، كما جعلت فى نساء أهل الكتاب محصنات عفيفات يحافظن على طهارة العرض وشرف الحياة الزوجية.

ويحكى البخارى فى صحيحه أنه كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ فمرض فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له أبوه، أطع أبا القاسم، فأسلم الغلام وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فخرج عليه الصلاة والسلام وهو يقول: الحمد لله الذى أنقذه من النار».

وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت: اشترى

---

(١) سورة المائدة — ٥

رسول الله ﷺ من يهودى طعاما بنسيئة ، وفى رواية ، إلى أجل ورهنه درعا له من حديد » .

وقد يتساءل البعض قائلا : ألم يكن فى المسلمين من يشترى منه الرسول ؟ والجواب أن هناك حكما كثيرة لهذه المعاملة منها بيان عملى لجواز معاملة غير المسلمين ، كما أن فيها نوعا من التسامى وعفة النفس وكرم الهمة لرسول الله لأن الصحابة قد لا يأخذون رهنا من رسول الله ﷺ ، بل قد لا يقبضون منه الثمن ، فعدل إلى معاملة اليهودى لئلا يضيق على أحد من أصحابه .

ولعلنا نذكر أن أحد المؤتمنين على أسرار هجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، وأحد الذين شاركوا فى التخطيط لها والتنفيذ هو عبد الله بن أريقط وكان مشركا .

وعندما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة عقد معاهدة تاريخية مع اليهود كفلت للفريقين حرية العقيدة وأمن الجوار ، وجمعت بين المسلمين واليهود فى ميدان المعركة دفاعا عن المدينة .

إن هناك مجالات فسيحة للتعاون بين المسلمين أفرادا وجماعات وبين غير المسلمين فى إطار التعارف البشرى وكرامة الإنسان وتبادل

المنافع .. قال تعالى «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان»(١).

وقال جل شأنه «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»(٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة المائدة — ٢

(٢) سورة الحجرات — ١٣

الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب
٤٩٦١ لسنة ١٩٩٦ م
I.S.B.N—977—19—0699— 2

٤ من ذو الحجة ١٤١٦ هـ — ٢٢ من إبريل ١٩٩٦ م